من روائع عصر الأحياء

قصص الأيام العشرة

بقلم جوفانى بوكاشيو

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من آثار عصر الأحياء الخالدة قصص بوكاشيو الشهيرة المسماة « ديكامرونى » . وقد مضى على ظهور هذا الأثر الرائع زهاء ستة قرون ؛ بيد أنه ما زال حتى عصرنا يحتفظ بروعته وسمو خياله وفنه ، وما زال يتبوأ مكانه بين الآثار العالمية الخالدة

وقد أوحت إلى بوكاشيو كتابة أثره حوادث مروعة شهدها وهزت نفسه إلى الأعماق ، فأذكت خياله ، وانتزعت من قلمه تلك القصص الساحرة التى تصور لنا كثيراً من روح العصر وخلاله أصدق تمثيل وأمتعه

كتبها بوكاشيو وأشباح الفناء تحتشد من حوله ، والموت الذريع يقطف أزاهير المجتمع من كل الطبقات والأعمار ؛ والتمس بكتابتها عزاء لنفسه وعزاء لمجتمعه عما نزل به من أهوال الفناء ، ولتكون باعثاً إلى النسيان والمرح . وكان بوكاشيو يومئذ فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، فى ذروة الفتوة والنضج ، فجاءت هذه القصص أروع آثاره ، وعنوان مجده ، واتخذت مكانها بين أعظم آثار عصر الأحياء

ولد جوفانى بوكاشيو فى سنة ١٣١٣ م فى باريس من أب ايطالى وأم فرنسية ، ونشأ فى فلورنس موطن أسرته ، وتلقى فيها تربيته ، وشغف منذ حداثته بالشعر والأدب ، وتأثر أيما تأثير بشعر ڤرجيل ؛ وكان أول آثاره قصة غرامية عنوانها « فياميتا » وهى فتاة حسناء يظن أنها تمثل فتاة حقيقية هام بها بوكاشيو ، وأظهرها فى شخص فياميتا ، والمظنون أيضاً أنه يصف حبيبته هذه فى شخص بطلة قصته الأخرى « فلسكوبو » . وتجول بوكاشيو فى المدن الايطالية ، وعاش حيناً فى نابل ، فى عهد ملكها روبرتو وملكتها الفتية الحسناء چوفانا (جنه) ، واتصل ببلاطها الساطع المنحل معا ، وكتب فيها بعض قصائده وقصصه ؛ ومنذ سنة ١٣٤٢ نراه يستقر مع أسرته فى فلورنس ، ويحاول أن يفوز بمنصب فى الحكومة أو مركز أدبى يعيش منه ؛ وقد لفتت كفاياته الحكومة غير بعيد ، فأوفدته سفيرا إلى حكومة « رومانيا » فى سنة ١٣٤٦ ، ولكنه اضطر بعد ذلك بنحو عام إلى العودة إلى فلورنس على أثر موت أبيه ليعنى بشؤون أسرته ، واشترى بمعظم ميراثه كتباً لاتينية ويونانية ، وانقطع للكتابة والتأليف

ولم يمض قليل على ذلك حتى نكبت إيطاليا وفلورنس ونكب العالم بأسره بتلك الكارثة العظمى التى تعرف فى الرواية الغربية بالوباء الأكبر ، وفى الرواية الاسلامية باسم مماثل هو « الفناء الكبير » ، ذلك أن الفناء الكبير قد اجتاح أمم المشرق والمغرب معاً ، وحمل منها إلى القبر عشرات الملايين ، وعصف بجميع المجتمعات الزاهرة أيما عصف ؛ وبسط على العالم المتمدن كله ريحاً من الرهبة والروع ؛ وقد شهد بوكاشيو أحداث الوباء فى فلورنس منذ بدئها ، وترك لنا عنها وصفاً مروعاً مؤثراً ؛ واليك ما يقوله فى أصل الوباء وأعراضه :

« إنه فى سنة ١٣٤٨ ميلادية حل الوباء الفاتك بمدينة فلورنس الزاهرة ، أجمل المدن الايطالية ، بعد أن لبث قبل ذلك بأعوام يعصف بالمشرق ، إما لتفاعل الكواكب والاجرام ، وإما لغضب الله الحق لما يرتكبه عباده من الخطايا ، ولأنه أرسل اليهم صواعق عقابه ، فعصف بكتل من البشر لا حصر لها ؛ وانتقل الوباء مسرعاً من مكان إلى مكان حتى حل بالغرب يحمل الفزع والروع . . . وكانت أعراضه سواء بالنسبة للرجال أو النساء ، فيظهر أولاً فى شكل أورام تصيب الأبط أو أسفل البطن ثم تنتشر فى جميع أجزاء الجسم ، ثم تتحول إلى بقع سوداء أو ممتقعة تملأ الذراعين والفخذين ، ثم سائر أعضاء الجسم ؛ وكان المصاب يموت عادة فى اليوم الثالث دون حمى ودون مضاعفات أخرى »

واجتاح هذا « الفناء الكبير » أمم الشرق والغرب معاً ، فعاث فى الأمم الاسلامية أيما عيث ؛ وعصف بمجتمعاتها الفنية الآهلة ، وسرى إلى جميع الأمم الأوربية ، وبسط عليها رهبة الدمار والموت ، وحمل من سكانها نحو الثلث فى أشهر قلائل ؛ وكان فتكه أشد ظهوراً ، وأعمق أثراً فى مجتمعات إيطاليا ، وبخاصة فى فلورنس التى كانت تتمتع يومئذ بحضارة زاهرة ؛ وهنالك أفنى

جيوشاً برمتها ، وأهلك عدداً كبيراً من الأمراء والعظماء والقادة ، ويقول لنا بوكاشيو إنه استطال هنالك من مارس إلى يونيه سنة ١٣٤٨ ، وحمل من فلورنس وحدها مائة ألف إنسان »

ويصف لنا بوكاشيو أهوال الوباء ومناظره المروعة وصفاً ضافياً مؤثراً ، فيقول : « كان الناس يجتنبون بعضهم بعضاً ، وقلما يتزاور الأقارب أو لا يتزاورون أبدا ؛ وألقت الكارثة الرعب فى قلوب الناس جميعاً ، رجالاً ونساء ، حتى أن الأخ كان ينبذ أخاه نبذ النواة ، والأخت أخاها ، والمرأة زوجها ؛ بل أروع وأبعد عن التصديق أن الآباء والأمهات أضربوا عن رؤية الأبناء أو تعهدهم ، كأنما ليسوا من ذويهم »

« بل لقد هجر الناس الجيران والأقارب والخدم حتى اضطروا الى ارتكاب عادات لم يسمع بها ؛ من ذلك أن المرأة مهما كانت من الجمال أو النبل ، إذا أصابها مرض واضطرت الى استخدام رجل ، شيخا كان أو شابا ، فانها تكشف له دون خجل كل أجزاء جسمها إذا اضطرتها ظروف المرض ، وربما كان ذلك هو السبب فى انحلال الحشمة والحياء عند أولئك اللائى نجون »

ثم يقول : « وكان يعنى بدفن الناس بادىء ذى بدء ، فيلقى بهم دون احتفال فى أول مقبرة ؛ فلما اشتد الوباء ، كان الموتى يحملون جماعات ، ويلقون فى الطرق ؛ وقد تموت أسر برمتها فلا يبقى منها انسان ؛ وأزواج وآباء وأبناء معا ، ويلقى الجميع بلا تمييز فى حفر كبيرة »

* * *

تلك هى الأحداث والمناظر المروعة التى أذكت خيال بوكاشيو ، وأوحت اليه بكتابة أعظم آثاره ، وهيأت له فى نفس الوقت ذلك الأفق المنوى الحر الذى جرى فى ظله قلمه ، ويلخص لنا بوكاشيو غايته من تأليف ذلك الأثر فى قوله : « ولقد رأيت ترويحاً للسيدات العاشقات وتعزيتهن — ونكفى فى ذلك لغيرهن الأبرة والمغزل — أن أقص مائة خرافة أو رواية أو تاريخ أو ما شئت أن تسميها »

ثم يقول : « ومن ذا الذى ينكر أن الأفضل أن نقدم ذلك العزاء للسيدات العاشقات لا للرجال العاشقين ؟ ذلك أن السيدات العاشقات يفضن خجلاً وخوفا ؛ ويرغمن على إخفاء جوى الحب فى صدورهن ، وتحملهن رغبات الآباء والأمهات ، والأخوة والأزواج ، وأهواؤهم وأوامرهم ، على أن يقضين معظم أوقاتهن معتقلات فى غرفهن الضيقة ، فيجلسن عاطلات ويستعرضن فى أذهانهن أفكارا مختلفة لا يمكن أن تكون مرحة أو سارة »

وكتب بوكاشيو قصصه الساحر فى ذلك الأفق الذى تعمره أشباح الفناء ، والناس ينظرون الى الحياة كأنها لعب طائر ، ويودعون بعضهم بعضا ، واختار لكتابه هيكلا طريفاً خلاصته ، أنه فى ذات يوم ثلاثاء ، وعصف الوباء فى أشده ، اجتمع فى كنيسة القديسة « ماريا نوفيلا » فى فلورنس ، سبع فتيات هن بامبنيا ، وفيامبتا ، وفيلومينا ، وأميليا ، ولوريتا ، ونيفيلى ، وأليزا ؛ وكانت أكبرهن بامبنيا فى الثامنة والعشرين ، وأصغرهن أليزا فى الثامنة عشرة ، واقترحت بامبنيا أن يغادرن المدينة فراراً من الوباء والموت أسوة بأصدقائهن ؛ فاعترضت فيلومينا ، وقالت إن النساء ينقصهن التفكير السليم ، ويغلب عليهن التقلب والشك والخور ، ولذا وجب عليهن أن يخترن مرشدا ؛ فأيدت قولها اليزا وقالت إن الرجال هم أصحاب الرشاد والنصح ، واقترحت أن يستدعين بعض رجال يقومون بالارشاد

وفى تلك اللحظة يدخل الكنيسة ثلاثة فتيان ، أصغرهم يناهز الخامسة والعشرين ، وهم بانفيلو ، وفيلوستراتو ، وديونيو ، وكان من غرائب الاتفاق أن كلا منهم كان يعشق إحدى الفتيات السبع ، وأنهم جميعاً أقارب للأربع الباقيات ، فأشارت اليهن بامبنيا ، وقالت إن العناية تحقق أمنيتهن بحضور أولئك الفتية الكرماء الأمناء ، فاعترضت نيفيلى ، وكانت حبيبة أحدهم ، خشية الافتضاح ، وناقشتها فيلومينا مؤيدة بامبنيا ؛ فغلب رأيها واستدعى الفتيان الثلاثة ، واتفق الجميع على ارتياد قصر خاص ، ومعهم الخدم وكل ما يحتاجون اليه ، وهنالك يقيمون حتى ينصرف الوباء ؛ وفى صباح اليوم التالى ذهب الجميع الى هذا المحل المختار ، وهنالك اتخذوا مجلسهم تحت الأشجار الظليلة على أرائك وثيرة ، وأمامهم الاطعمة والأشربة الشهية ، وجعلوا يترددون بين الطعام والسباحة فى بركة صغيرة بالقصر ؛ وهنالك أيضاً بدأوا سرد القصص

وكانت صاحبة الفكرة بامبنيا ، فقد اقترحت أن ينتخب أحدهم حاكما للمجلس كل يوم ، وأن يضطلع فى هذا اليوم بتدبير شؤون الجماعة وتسليتهم ؛ وتولت هى منصب الملكة